

# عواملُ سياسيَّةٌ واقتصاديَّةٌ في تطوُّر سورية في العصر الآرامي القديم

(حتى أواخر القرن الثامن ق.م)

د. محمد عرب فرزات

جامعة دمشق

منذ الربع الأخير من الألف الثاني ق.م برزت جملة من التغيرات الأساسية على المسرح السياسي في سورية الشمالية وفي كل المشرق القديم ، نتيجة لتدخل عاملين اثنين من العوامل التي أثرت بصورة متزامنة وعميقة في تاريخ المنطقة : أولهما ، تحرك الشعوب التي عرفت باسم « شعوب البحر » في الوثائق المصرية الفرعونية ، وثانيهما ، تحرك الاقوام العربية القديمة من البادية العربية السورية ، بادية الشام ، نحو انحاء مختلفة من الهلال العربي الخصيب ، في وادي الرافدين وبلاد الشام ، وهي الاقوام الآرامية التي تربط فيما بينها لغة مشتركة ، وإن اختلفت لهجاتها ، هي اللغة الآرامية الأم ، التي تعد كما هو متداول عادة من « اللغات السامية » .

وإننا في هذا البحث سنحاول ان نلقي بعض الضوء على هذه المرحلة من تاريخ المشرق العربي القديم وما آلت اليه من نتائج خطيرة ، أبرزها على الصعيدين الديموغرافي والسياسي انتشار القبائل الآرامية واستقرار بيوت حاكمة آرامية في أهم مدن سورية الشمالية منذ أواخر الألف الثاني ق.م ومطلع الألف الأول ، أي في العصر الذي يعرف عادة بالعصر الآرامي القديم . وتعتبر هذه التحركات البدوية العربية من حيث نتائجها هذه ، المباشرة والبعيدة ، أهم مراحل الانتشار العربي قبل الفتوحات العربية الإسلامية . أما على الصعيد الاقتصادي فهو ظهور الآراميين في سورية الى جانب البابليين في الرافدين والفينيقيين على الساحل كأهم عامل اقتصادي في المنطقة مدة

سبعة قرون ( من القرن العاشر - القرن الثالث ق.م ) أي الى العصر الهلنستي .

## ١ - انقلاب الوضع الدولي في سورية الشمالية في مطلع الالف الاول ق.م .

مع تحرك « شعوب البحر » تعرضت سواحل الحوض الشرقي للبحر المتوسط الى سلسلة من الهجمات منذ القرن الثالث عشر كان من نتائجها وقوع انقلاب وتغيرات تاريخية في اوائل القرن الثاني عشر منها (١) : تهديم الحضارة الإيجية في كريت وحوض بحر ايجيه ، وانهيار الامبراطورية الحثية في آسية الصغرى ، واختفاء مدينة أوجاريت العظيمة على الساحل الكنعاني الشمالي في سورية ، واستقرار بعض عناصر من « شعوب البحر » الهائية في الساحل الكنعاني الجنوبي ممن اطلق عليهم اسم **فلسطينيين** ( فلسطين ، بلست ) لان بينهم من كان ينتمي الى قبائل آخائية إيجية كانت تحمل هذا الاسم ، وبدأت تدعى تلك المنطقة عند اليونان ، وكذلك في الديوان الملكي الاشوري ( منذ القر الثامن ق.م ) ، باسم مشتق من هذا الاسم ، والذي غلب على البلاد بعدئذ في العصر الروماني ، بصيغة فلسطين .

ولم تنج مناطق سورية الشمالية من عواقب هذه التغيرات ، اذ يرجح وقوع هجمات من الشعوب التي كانت تقطن سواحل خليج مرسين وشمالى خليج الاسكندرونة ، وهي المنطقة التي كانت تعرف في المصادر الحثية باسم كيزوواتنا ، ثم وردت باسم قوة في المصادر الآرامية وهي كيليكية (٢) . ولكن هذه العناصر من الاقوام الشمالية اصطدمت بالسكان المحليين ، وهم خليط من عناصر حورية وامورية ذات ثقافة بابلية ابرز ملامحها استخدام الكتابة المسمارية على الواح من الطين . وهذه العناصر هي بقايا مجتمعات امبراطوريتي ميتاني وحاتي وممالك امورو وبخاصة مملكة حلب - يحاض ، التي قامت بأدوار اساسية في الصراع الدولي الذي نشب حول المنطقة واشترك فيه فراعنة مصر اعتبارا من القرن السادس عشر وطوال أربعة القرون . ولقد كان من عواقب نهاية مملكة حلب وتدهور ميتاني المبكر ، وسقوط الامبراطورية الحثية وانحسار نفوذ الفرعون المصري وتقلص مملكة بابل ، ترك الجبل على الغارب امام العوامل الفاعلة التي ظهرت بقوة على المسرح الدولي وهي :

اولا : الشعوب الاخائية وغيرها التي كانت فرت من وجه الغزو الدوري المتحرك من البلقان نحو سواحل هيلاد ( اليونان ) وجزر بحر ايجيه ، لكي تبحث بالقوة عن وطن جديد على شواطئ اسية الصغرى وسورية وفلسطين ومصر وبرقة ، أي على امتداد شواطئ الحوض الشرقي للبحر المتوسط . لكن هذه الاقوام التي لم تخلف وراءها وامامها سوى الدمار لم تجد بندا من الانضاء تحت نفوذ الفرعون المصري رعمسيس

الثالث الذي عمل على توطينها واستقرارها مع الكنعانيين في منطقة عسقلان واسدود وغزة على الساحل الفلسطيني الجنوبي .

وثانيا: القبائل الآرامية التي استطاعت بانتشارها السريع والكثيف ان تسد الفراغ وان تحل محل الدول الكبرى المنهارة دولا جديدة هي سلسلة من الامارات والممالك العديدة التي تزعمتها بيوت حاكمة اتخذت قواعد راسخة لها في مدن وحصون قديمة على سفوح طوروس وفي شمال سورية . واذا ما القينا نظرة على الخارطة السياسية التي ارسمت في اعقاب هذا التغيير لوجدنا الوضع الدولي في سورية العليا ( سفوح طوروس ) وفي شمالي سورية ، فيما بين القرنين العاشر والثامن ق.م (٣) ، على الشكل التالي :

**انقسمت المنطقة الى دول عديدة :** ففي اقصى الشمال اتحاد ممالك وامارات **طابال** الذي كان يضم العديد من الدويلات الصغيرة على سفوح طوروس العليا ، وترجع أهمية هذه المنطقة الى ثروتها المعدنية واهمها الفضة والحديد مما جعلها هدفا دائما للحملات الاشورية وبخاصة في القرنين الثامن والسابع . ويتصل هذا الاتحاد بشعوب **كيزوواتنا الحثية ، خيلاكو ( كيليكية بعدئذ )** التي كانت تتحرك باتجاهين من الشمال الى الجنوب ، ومن الجنوب الى الغرب اي على امتداد كيليكية التاريخية التي شكلت في ذلك العصر ، اي في مطلع الالف الاول ق.م ، جبهة احتكاك وتفاعل مباشر مع الاقوام العربية القديمة التي كانت تتكلم لغات ولهجات سامية ، وهم القبائل الآرامية التي عرفت اولا باسم **أخلامو** . ومن الدويلات التي تشكلت على هذه الجبهة السورية الشمالية : **قوة** في سهول كيليكية وكانت مشهورة بالخيول . **ويؤوديا** وعاصمتها **شمال** اقصى مدائن بلاد العرب . وقد ذكرت شمال مهموزة على انها الشمال وهي ربح تهب من قبل الشام نحو بلاد العرب (٤) . **وعنقي ( العمق )** ومملكة « حاتي الكبرى » وهي المملكة التي بقيت تحمل اسم الدولة الحثية حول **كركميش ( جرابلس )** حتى القرن السابع ق.م . اما اهم هذه الممالك فهي **ياحان** في منطقة لوحوتي ( وهي لعش في النصوص الآرامية كما في نصب ملك حماه **زكر** في النقوش الآرامية من القرن التاسع ولعل الاسم محرف من نوحاشة الواردة في النصوص المصرية من اواسط الالف الثاني ) ، وهي منطقة حلب التي احتفظت بأهميتها الاقتصادية ومكانتها الدينية وبخاصة بعد ان تزايدت أهمية معبد هدد المعبود الآرامي الرئيسي . ووضحت ياحان التي ورثت يمحاض القديمة جزءا من مملكة آرامية كبيرة بزعامة اسرة ارامية حاكمة هي بيت اجوشي التي جعلت معاقها في ارفاد ( تل رقاد ) واعزاز . وقد قامت هذه المملكة الآرامية في شمال سورية في القرن الثامن بدور يماثل في الأهمية الدور الذي قامت به مملكة آرام دمشق في سورية الوسطى والجنوب سياسيا واقتصاديا .

وقد رافق هذا التغيير العنيف للخارطة السياسية للمنطقة بدء مرحلة انتقالية على الصعيد الثقافي واللغوي بخاصة . فزوال الامبراطورية الحثية من الوجود لم يكن ليعني زوال الحضارة الحثية ، فلقد استمر التأثير الثقافي للغة الحثية واللسن الحثي على طول شريط سفوح طوروس ومناطق سورية الشمالية . ويلاحظ غوراني بحذر انه يمكن ان نميز خطا مفترضا مارا بجبال طوروس وجبال امانوس ، تبرز السمات الحضارية الحثية في شماله بينما تبرز ملامح ثقافية ولغوية عربية سامية في جنوبه . ولكن ينبغي ان نلاحظ انه ليس من الحكمة تبسيط الامور وصيها في قالب شكلي جازم على هذه الصورة ، لان التبادل الثقافي لغويا وفنيا واجتماعيا كان عميقا ومتنوعا تبدو آثاره في الآثار المكتوبة وفي العمارة والطقوس واللباس والحياة المنزلية . ولعل اهم مراكز التلاقي والتفاعل الحضاريين في تلك الفترة مملكة كركميش ( جرابلس على الفرات ) التي كانت تمثل بقية الامبراطورية الحثية في الوسط الآرامي المتعاطف الى جانب مراكز اخرى اقل أهمية مثل مرعش ( شمال أرفاد ) وكوموخوعلى الضفة اليمنى للفرات ( وهي كوماجين الكلاسيكية ) .

وينبغي علينا ان نشير هنا الى ان التغيير لم يقتصر على سورية الشمالية ، لان مناطق سورية الجنوبية وفلسطين تعرضت بدورها الى تغيير مماثل نجم عن الضعف الذي أصاب مصر نتيجة للهزات الداخلية التي مرت بها زمن الاسرة العشرين وللغزوات المتلاحقة التي قامت بها « شعرب البحر » لاراضي الامبراطورية الفرعونية على الساحل الكنماني الجنوبي وبرقة حتى انها اخترقت اراضي مصر نفسها الى دلتا النيل . لكن رعمسيس الثالث ( ١١٩٧ - ١١٦٥ ) تمكن من احتواء الخطر واستطاعت مصر ان تنجو ، لكن وضعها الدولي تضعضع ، ونفوذها تراجع عن ارض كنعان المنقسمة ، فسقطت هذه البلاد في خضم صراع بين شعوبها وقبائلها التي تنازعت على السيطرة فيها . وانتهى الامر الى تاسيس مملكة على راسها داود الذي اورث ملكه لابنه سليمان ( القرن العاشر ق.م ) . الا ان هذه المملكة ، حتى في ذروة قوتها وفي اقصى درجات اتساعها . لم تزدد عن كونها قوة اقليمية محلية لم تستطع ابدا ان توازي في اهميتها القوى الدولية التي سادت المنطقة في المرحلة السابقة (٥) . وهكذا فان الفراغ الذي تشكل فيما بين الفرات والبحر المتوسط جذب القوى المتحركة الحديثة في وادي الرافدين وبلاد الشام ، وفي طليعتها الآراميون والآشوريون .

لقد كان لابد من نشوب صراع مرير وطويل بين العناصر القادمة الجديدة وبين العناصر القديمة ، استغرق قرابة القرنين ، وبدأت ملامح نهايته في اواخر الالف الثاني ق.م عندما اخذت سورية تسترد شيئا فشيئا اسس الاستقرار السياسي والاقتصادي مع تاسيس الاسرات الحاكمة وتكوين الدول الآرامية في المنطقة على ايدي زعماء

القبائل العربية البدوية الآرامية الذين تحركوا من بادية الشام وانداحوا بعشائهم نحو مراكز المعمورة والحضارة سواء في وادي الفرات أم في سورية الشمالية والوسطى .

وعلى الرغم من هذا التبدل الكبير في الخارطة السياسية لسورية في تلك الفترة من مطلع الالف الاول ق.م ، فان المصطلحات الجغرافية القديمة (٦) بقيت هي الدارجة في الحوليات الآشورية الرسمية وفي النصوص التاريخية من العهد القديم . فاصطلاح « بلاد حاتي » بقي يتردد في هذه المصادر ليدل على مناطق من سورية العليا على سفوح طوروس وسورية الشمالية وعلى الاخص مملكة كركميش ( جرابلس ) وحثينا ( شمالي حوض العمق ) . كما يتردد اصطلاح « بلاد حاتي الكبرى » ليشمل ميليد ( ملاطية ) ، وطابال وخیلاکو ( كيليكية ) ، وجرجم ( مرعش ) التي تلامس حدودها الشمالية حدود مملكة بيت اجوشي الآرامية القوية في ارفاد ( تل رفاد ) .

وينبغي هنا ان نشير بوضوح الى ان وصف هذه المناطق بالحثية ليس له اي معنى إثني فهو لا يعني ان السكان كانوا حثيين او ان الحضارة حثية . فليس للاصطلاح سوى قيمة جغرافية اقليمية لان الشعوب كانت مختلطة في هذه المنطقة وهي من اصول حورية وحثية وامورية وآرامية .

وهكذا حل الانقسام والتعدد محل الوحدة السياسية التي تمثلت بالامبراطورية الحثية الى حين سقوطها . ولم تستطع هذه الدول الصغيرة الجديدة سد الفراغ السياسي والعسكري الناجم عن التغيير في خارطة المنطقة ، وكان لابد من احلال توازن دولي جديد محل التوازن المنهار بسقوط القوى القديمة او بتراجعها . وهكذا اتاح الوضع الجديد الفرصة لظهور القوى الدولية الجديدة على مسرح الاحداث ممثلة بالدولة الآشورية والحلف الآرامي ، يضاف اليها مملكة اورارتو ( ارمينية ) التي ترايدت اهميتها واقتربت من مسرح الصراع في شمال سورية خلال النصف الاول من القرن الثامن . وقد كانت آشور من بين هذه القوى الدولية كلها هي الاهم ، على الرغم من المصاعب الداخلية والخارجية التي واجهتها ، واكثر عوامل الاستقرار شانا في المنطقة . وذلك خلال مدة طويلة امتدت من القرن الثاني عشر الى اواخر القرن السابع . ولم يكن بوسع اورارتو منافستها بالدرجة نفسها من القوة والفعالية ، بسبب من موقعها البعيد جغرافيا من جهة والغريب حضاريا من جهة اخرى . اما الآراميون فقد كانوا يملكون من عناصر القدرة على الصراع ما مكنتهم من الصمود طويلا ، ومن فرض ثقافتهم ولغتهم اخيرا ، رغم سقوط دولهم . اما وراء جبال زاغروس فقد اخذت القبائل التي كانت تظهر في لمحات خاطفة خلال المراحل السابقة ، كالفوتيين والكاشيين ، تتحد لتكون دولا قوية في شمال ايران وجنوبها أهمها مملكة الميدين والفرس .

إننا سنتتبع فيما يلي هذا الدور الآرامي سياسيا واقتصاديا في مناطق سورية الشمالية نظرا لطبيعة هذا الدور الذي تميز بمواجهة التوسع الآشوري . ولن نتعرض في هذا البحث الى الدور الآرامي في الجنوب ، وهو الدور الذي تميز بمواجهة التوسع العبراني وبفرض العامل الآرامي في سورية الوسطى وفلسطين عسكريا واقتصاديا ولغويا لان لهذا الموضوع مجال آخر سنتناوله في فرصة أخرى .

## ٢ - الدول الآرامية عامل سياسي في المشرق القديم وسورية الشمالية :

الى جانب هجمات « شعوب البحر » نحو بلاد الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، يشكّل تحرك القبائل الآرامية من شمال الجزيرة العربية وبادية الشام نحو حوض الفرات وبلاد الشام العامل الاخر المهم في تاريخ المشرق العربي القديم كله منذ القرن الثالث عشر ق.م .

وترجع بدايات الموجة الآرامية الى اواسط الالف الثاني ق.م عندما اخذت قبائل بدوية آرامية تتحرك وباعداد كبيرة ، نحو حوض الفرات واراضي الجزيرة وسهول سورية الداخلية كما فعلت موجات سابقة كالاموريين قبل ذلك بالف عام تقريبا ( ٢٣٠٠ ق.م ) . لكن الانتشار الآرامي كان اقوى واعم واشد رسوخا ، ومتصلا ، ولذا كانت آثاره الديموغرافية والسياسية والحضارية ، الثقافية والاقتصادية ، كبيرة جدا .

فقد اخذت الدويلات التي كانت منضوية في نطاق الامبراطورية الحثية السابقة تنساقط في ايدي بيوت حاكمة آرامية . فتكونت مملكة بيت عديني حول العاصمة تل برسيب في وادي الفرات جنوبي كركميش ( جرابلس ) . واقام بيت حباري ، مملكة شمال ، محل يؤوديا . اما حلب التي كانت مركز مملكة ياحان فقد حلت فيها أسرة حاكمة آرامية قوية هي بيت جوشي التي اتخذت من ارفاد قاعدة لها .

اننا لا يمكن ان نعرف كيف وقع هذا التغير بالتفصيل ، فالمصادر لا تقدم لنا سوى معلومات محدودة ومجزوءة . ولاسبيل الى تفهم الظروف التي احاطت بالاحداث التي وقعت في مطالع الالف الاول ق.م الا بالعودة الى ما كان يجري في الالف الثاني عندما كانت تتوغل القبائل البدوية العربية القديمة ( الامورية والآرامية ) في اراضي بلاد الشام والجزيرة وحوض الفرات متتبعة خطى تحركات اسبق بنفس الاتجاه (٧) . ويتقدم ج بوتشلاتي (١٩٦٦) بفرضية تقول ان اصول الاموريين ترجع الى بادية الشام والى منطقة جبل بشري بخاصة . وهو يربط بين حركات هذه القبائل وبين تحركات الاخلامو الآراميين ، ومنهم السوتيون ، في اواخر الالف الثاني ، ويعتبر الاستيطان

الارامي متمما للاستيطان الاموري القديم الذي كشفت حفريات تل مردوخ ( إبلا ) عن مدى اهميته . ان تتبع مجريات التطورات تجعل نظرية بوتشلاتي مقبولة ولكن ينبغي ان نلاحظ انها لم تكن جديدة تماما ، الا انها تلخص المعطيات السابقة وتربط فيما بينها (٨) . فقد سبق ن. شنيدر ( ١٩٤٩ ) الى القول بوجود عناصر آرامية في عصر مبكر يرقى الى الزمن السومري الاخير ، عصر اور الثالثة ( ٢٠٠٠ ق.م ) ودرس **كوب** في كتابه الهام عن « البدو في ضوء وثائق ماري » ( ١٩٥٧ ) تحركات القبائل البدوية ومراحل استيطانها في وادي الفرات منذ مطالع الالف الثاني ق.م . وطرح ليفراني ( ١٩٦٢ ) مسألة وجود عناصر آرامية في مملكة أوجاريت . وفي ضوء هذه الدراسات كلها يمكن التأكيد دون تردد مع **أ. دوبون - سومر** ( ١٩٥٣ ) ان بدايات التاريخ الارامي ترقى الى زمن أبعد من الزمن التي قامت فيه الدول الارامية المعروفة في مناطق كثيرة من سورية وحوض الرافدين .

وقد توصل الآراميون بالتدريج الى السيطرة على المناطق الواقعة غربي الفرات ومناطق الجزيرة الواقعة بين الخابور والفرات ( آرام النهرين ) ، ثم نجحوا في شق طريقهم في اتجاهات متعددة نحو بابل ونحو شمال سورية وجنوبها .

وإذا ما أردنا ان نعيد تكوين تطور الاحداث في ضوء المعلومات المتوفرة لدينا فانا نجد مثالا على ذلك في تصورنا لتقدم القبائل الآرامية من مناطق سفوح جبل بشري الذي كان يعتبر معقلها الاول باتجاه ضفاف الفرات شمالا نحو ارفاد واعزاز ، وغربا نحو حوض نهر قويق ( الجاف حاليا ) ، ومنطقة نوحاسه التي يرد ذكرها في المصادر المصرية وهي لعش في المصادر الآرامية (٩) . ومركزها الطبيعي والاقتصادي والحضاري مدينة حلب نفسها عاصمة يحماض الامورية وياحان الحثية (١٠) . وتتضح من طبيعة هذا التحرك واتجاهه الدوافع الاقتصادية من أجل السيطرة على طرق القوافل والتجارة ما بين وادي الفرات والبحر المتوسط وما بين الاناضول والجنوب ، اي نحو بلاد جزيرة العرب ومصر ، وهي طرق تمر كلها في منطقة حلب .

ويجد الباحثون اصداء هذه الاحداث وما سببته من اضطراب لحبل الامن في الوثائق الرسمية الحثية والاشورية . فالملك الحثي حاتوشيلي الثالث ( ١٢٨٣ - ١٢٦٠ ) يعبر عن قلقه من تحركات قبائل الاخلامو التي اضرت بسلامة المواصلات مع بلاد بابل . كما شكل هؤلاء الاخلامو انفسهم ، وهم الذين يرد ذكرهم الى جانب الآراميين في اقدم الوثائق المعروفة ، خطرا كبيرا اقضى مضاجع الاشوريين في المرحلة التي نهضوا فيها لاحتلال موقعهم الفد في تاريخ المنطقة بعد الفراغ الذي خلفه الانهيار الحثي المفاجيء في مطلع القرن الثاني عشر .

وقد ظهرت اقدم اشارة تاريخية الى الغزاة الآراميين في حوليات تكلات فلاحر الاول ( اواخر القرن الثاني عشر ) ملك اشور بصيغة ( آرامايا ) ولكن ذكرهم بقي مقرونا باسم ( الاخلامو ) الذين استطاعوا قبل ذلك اختراق حدود بلاد آشور وعملوا على اضطراب حبل الامن فيها زمن الملك أريك - دين - إيلي ( اواخر القرن الرابع عشر ) . واهتم عدد من الباحثين في بدايات التاريخ الارامي بمعاني التسميات القديمة التي اطلقت على اجيال الآراميين الاولى من أجل فهم الصلات فيما بينها والروابط القبلية والاجتماعية فيها . ومن بين هؤلاء الباحثين ر.ت. أو كلاغان الذي وجد في اصطلاح اخلامو معنى ( صديق أو رفيق ) بالعودة الى جذر ( خلم ) في معاجم اللغات السامية ومنها العربية . ففي العربية، الخلم : الصديق الخالص ، والجمع اخلام ، وخلماء ، وهم الاصحاب ، والاخلام ايضا مريض الفم ( ١١ ) . ولكن س.موسكاتي ينتقد هذه النظرية واساسها اللغوي وينتهي الى ان اخلامو علم على قبيلة او مجموعة من القبائل البدوية المتحالفة .

أما اذا اعتبرنا ان لاصطلاح اخلامو صلة بالجذر ( حلم ) فأصل مدلول الكلمة يمكن ان يشير عندئذ الى معان أخرى نجدها في المعجم الآرامي والعبري ، مثل القوة والبأس ( ١٢ ) ، وما يضادها في العربية مثل الاناة والعقل ، فأولو الاحلام والنهى هم ذوو الالباب والعقول ، وعند ابن سيدة ، الاحلام : الاجسام ( ١٣ ) . فأخلامو آراميا يمكن ان تعنى إذن : احلاف الآراميين ، أو شيوخ الآراميين وحلماءؤهم . ومهما يكن ، فقد ورد ذكر تغفل عناصر من الاخلامو الى بابل في اواسط الالف الثاني حتى وصل بعضهم الى شواطئ شرقي الجزيرة العربية ( ديلمون ) وإلى مناطق من الفرات والجزيرة كما يؤكد جارييلي . وقد بقي الاصطلاح المزدوج اخلامو - آراميا واردا في المصادر الاشورية في عصر آشور ناصر بال الثاني ( ٨٨٣ - ٨٥٩ ) . الى ان تغلب الاصطلاح آراميا الدال على الاراميين على الاصطلاح الاخر اخلامو ، ولكن هذا الاسم لم يزل من الاستخدام حتى عصر سنحريب ( القرن السابع ق.م ) . فاضحى كلا الاصطلاحين مترادفين ، ولكن لا يوجد في المصادر ما يمكن ان يثبت ان الامر كان كذلك في القرنين الثاني عشر والحادي عشر .

وكما اثارت كلمة اخلامو اهتمام الباحثين اللغويين والمؤرخين ، فان اسم الاراميين يرقى الى زمن ابعد بكثير من الزمن الذي شغل فيه الآراميون دورا خطيرا في تاريخ المنطقة ( خلال الالف الاول ق.م ) . فقد قيل ان اقدم اشارة الى اسم آرام تعود الى القرن الثالث والعشرين ق.م ، في وثيقة يعلن فيها نرام - سين الملك الاكادي العظيم انتصاره على هرشمتكي ( هرشمه = هرثمة ؟ ) وهو سيد آراموعم . ولا ادري لماذا تردد الاستاذ فرانسوا تورو - دانجان في قبول الصلة بين اسم آرام في هذا النص



القديم وبين الآراميين (١٤) ، ما دام هذا الاسم يرتبط باسم قبائل عمّ . وهي قبائل عربية كثيرا ما أشر إليها في عين المرحلة التاريخية في المصادر الفرعونية المصرية عندما كانت تذكر قبائل عمّ في بلاد الشام وسيناء والصحراء الشرقية (١٥) . وهي قبائل كانت بصورة ما تمت بصلات القربى إلى أجيال الاموريين أو العموريين .

وبالإضافة إلى ذلك يرد ذكر كلمة آرام ( آرام - كي ) في وثائق رافدية تعود إلى عصر اور الثالثة ( أواخر الألف الثالث ) ، وفي وثائق تجارية تعود إلى حوالي ٢٠٠٠ ق.م كما يرد آرام في اسم علم في نص من نصوص ماري من عصر زمري - ليم ملك ماري (١٦) .

ومهما يكن ، فإن هذه المؤشرات جميعا أن لم تؤكد أن الأخلامو هم الأجيال الأقدم من الآراميين ، فإن المصادر الآشورية ربطت ما بين الأخلامو والآراميين لوجود تشابه اجتماعي وثقافي ما بين هؤلاء جميعا ، كما لاحظ لأول مرة برنكمان (١٧) . وإننا نستطيع أن نؤكد بدورنا أنه يصعب علينا الفصل فيما بين هذه الشعوب البدوية العربية التي كانت تمت جميعا إلى أرومة واحدة وترجع إلى أصول واحدة مهما تعددت الأسماء التي أطلقت عليها من قبل الحضرة المقيمين ، سواء أكانت من الاموريين ( الألف الثالث ) ، أم من الأخلامو والآراميين ( الألف الثاني ق.م ) . وقد تفهم هذه الحقيقة الأستاذ كوبر بوضوح وشرحها فيما يلي : « كانت حركة البدو نحو مناطق العمران والحضر متصلة ومستمرة . وأنه لمن الصعب التمييز بين هذه العشائر أو تلك لأنها تنحدر من أصل واحد وتتكلم لهجات متقاربة . أما القبيلة الأكثر عددا والأشد بأسا فهي التي كانت تفرض اسمها دون غيرها . وربما يكون ذلك لمجرد الصدفة ، أو لما ينشأ من علاقات وثيقة بين بعض القبائل البدوية وبين سكان المدن والحضر الذين كانوا يتعاملون معها » (١٨) .

وهكذا يمكن أن نقول أن الانتشار الآرامي الواسع تكرر على الأرض التي انتشر عليها الاموريون قبل ذلك بأكثر من ألف عام . ولكن نجاح الانتشار الآرامي كان حاسما ، لما تميز به من كثافة وقوة وبراعة في اختيار نقاط الارتكاز والاستقرار ، وبخاصة في المنطقة التي تعتبر الجسر الاستراتيجي الممتاز ما بين وادي الفرات والبحر المتوسط ، حيث فرض الآراميون اسمهم على طريق آرام أو حقل آرام ( فدآن آرام ) ، وعلى أرض الجزيرة التي عرفت باسم آرام النهرين ( آرام نهرايم ) . ولم يقتصر انتشار الآراميين على شمال سورية ووادي الرافدين فقد امتد كما هو معروف إلى كل مناطق سورية الداخلية والوسطى وبخاصة مناطق البقاع ودمشق والجولان وشمال وادي الأردن .

كان على حركة الانتشار الآرامي هذه ان تواجه في آن واحد تحديين اثنين . فمن الشمال والشرق كانت مملكة اشور ، التي تكونت نواتها الاولى في منطقة تقع عند التقاء نهر الزاب بنهر دجلة ، هي التي وقفت في وجه التوسع الآرامي وعملت على احتوائه في صراع طويل استمر عدة قرون . اما في الجنوب فقد اصطدم الانتشار الآرامي بحركات الشعوب والقبائل المتنازعة على الاستيطان في أرض كنعان ووادي الاردن ، واهم هذه الحركات هي التي ادت الى استيطان قبائل عبرية في بعض مناطق من كنعان وتكوين مملكة على انقاض الممالك الكنعانية المتداعية بعد صراع طويل كان للحلف الآرامي بزعامة مملكة آرام دمشق الدور الاكثر أهمية فيه من القرن العاشر الى القرن الثامن ٧٣٢ ق.م .

لم يستطع الآراميون ان يحققوا انتصارا حاسما على آشور وان استطاعوا ان يشككوا خطرا مهددا لها في بعض المراحل ، كما حدث في القرن الثاني عشر قبل ان ينجح تكلات فلاصر الاول في دحرهم الى ما وراء الفرات . كما استطاعوا ان يمنعوا شلمنصر الثالث في معركة قرقر على العاصي ( القرن التاسع ) من تحقيق ما كان يرمي اليه من حملته التي قادها بنفسه واضطر الى التوقف عند ميدان المعركة ثم الى الانسحاب . ولكن الدول الآرامية والدول الاخرى في كنعان وفلسطين تداعت كلها امام الحملات العسكرية المتعاقبة للفاتح الاشوري تكلات فلاصر الثالث وخلفائه ( القرن الثامن ) ، الذي تمكن من القضاء على اكبر دولتين آراميتين : بيت اجوشي في ٧٤٠ ، ودمشق في ٧٣٢ ق.م .

ولئن لم ينجح الآراميون سياسيا في تكوين وحدة سياسية فانهم نجحوا في تكوين دول وممالك قامت بدور هام سياسيا واقتصاديا خلال النصف الاول من الالف الاول ق.م . وتمكنت في بعض الفترات وفي ظروف حرجية مرت بها المنطقة من تكوين احلاف آرامية قوية برزت في اهميتها العسكرية والسياسية الدولة الاشورية نفسها ، كما فعلت ارفاد (منطقة حلب ) ودمشق .

اما الاثر الاكبر للدور الآرامي في تاريخ المنطقة فهو دون شك النجاح في نشر اللغة الآرامية التي اصبحت لغة متداولة ومعروفة في كل وادي الرافدين وبلاد الشام منذ القرن التاسع ، وازدادت لغة رسمية ثانية الى جانب الاشورية التي كانت تكتب بالمسمارية في الديوان الاشوري نفسه (١٩) ، الى حد ان الدولة الاشورية نفسها اصبحت سكانيا وثقافيا بل واداريا بعد تكلات فلاصر الثالث دولة مزدوجة الجنسية ، اشورية - آرامية ، كما يؤكد دوران ولومير (٢٠) .



لنحاول بعد هذه النظرة المجملية الى الدور التاريخي للآراميين في سورية الشمالية، ان نوضح بشيء من التفصيل أهمية هذه الدول الآرامية سياسيا في المدة الواقعة ما بين القرنين الحادي عشر والثامن ق.م.

لقد ادى احتلال الآراميين للنقاط الاستراتيجية الهامة على طرق المواصلات في غربي الفرات ، اي بلاد امورو وفي سورية الشمالية ، الى تمكينهم من بسط سيادتهم على المنطقة بصفة مطلقة . فقد استقروا بقوة على ضفتي الفرات عند المنعطف الكبير حيث قامت مملكة بيت عديني ، وفي وادي الخابور حيث قامت مملكة بيت بخياني على انقاض غوزانا الحثية ( تل خلف ) . ولم يكن نجاح التطفل الآرامي في الفرات الاوسط اقل أهمية مما حدث في وادي الفرات الاعلى . فقد اضحى الوزن الديموغرافي والسياسي للآراميين حول بابل من القوة لدرجة انه مكن زعيما آراميا من احتلال عرش بابل وهو ( ادد - ابال - ادبنا ) ، ( ١٠٦٧ - ١٠٤٦ ) ( ٢١ ) ، بينما كانت قبائل آرامية اخرى تستوطن وتستقر على نطاق واسع في منطقة غوطة دمشق والبقاع ووادي الاردن الاعلى وبخاصة في جبال الجليل وسفوح حرمون وهضبة الجولان وبدأت تتكون حول آرام دمشق قوة آرامية عسكرية وسياسية استطاعت ان توقف التوسع العبراني في بداية القرن التاسع وان تمد نفوذ الدولة الآرامية الى حدود مملكة بيت اجوشي الآرامية الاخرى في الشمال ، كما يستدل من نصيب برهدد المكرس للمقرت والذي عثر عليه في موقع البريج ( ٢٢ ) . واننا يمكن ان نجد من المؤشرات ما يؤكد وجود شعور بالقربى والانتماء القبلي المشترك ما بين هذه الدول الآرامية . أو لم يتوجه ملك صوبة ( البقاع ) الى مناطق الفرات مستنجدا ، ساعيا الى طلب العون والايدي من أجل التصدي لحمالات وهجمات الملك داود . ولكن ألم ينشب ايضا وبالمقابل ذلك الصراع المرير ما بين ملك آرام دمشق وحلفائه من آرام والساحل الفينيقي من جهة ، وبين زكر ملك حماة ولعش من جهة اخرى ، بسبب النزاع على زعامة العالم الآرامي ، وهو الصراع الذي خلد ذكره في وثيقة مشهورة من اواخر القرن التاسع ( ٢٣ ) . كان برجوش ملك ارفاد الحليف الاول للملك دمشق برهدد بن حزئيل في هذا الصراع كما وقف الى جانبه فيه ملك قوة ( كيليكية ) والعمق وجرجم وشمال وميليد ( ملاطية ) وآخرون . ولم ينته الصراع الداخلي الى نتيجة حاسمة لانه كان على الحلف الآرامي ان يواجه خطرا اكبر هو تحرك الملك الاشوري ادد نيراري الثالث نحو سورية عبر الفرات في ٨٠٥ ق.م .

ان موقع الملك برجوش في هذا التحالف الآرامي السوري الكبير يبرز لنا أهمية مكانة مملكة ارفاد في شمال سورية ، بمقابل الاهمية التي تميزت بها مملكة آرام دمشق في الوسط والجنوب . ولربما عرفت دمشق بدورها هذا الدور الذي سجل لها في

الاسفار التاريخية من العهد القديم . ولكن الدور الذي قامت به ارفاد وحلب في الشمال لم يكن اقل أهمية ، كما تدل على ذلك الوثائق الآرامية على انصاب سفيرة ( القرن الثامن ) . وتدل الوثائق التي تبرز فيها مملكة ارفاد طرفا في حلف سياسي مع برجاية ملك « كنتك » ضد طرف ثالث على ان لارفاد تاريخا طويلا يرقى الى ما قبل القرن الثامن . ويمكن ان يعتبر وريثا لدور مملكة حلب الامورية ويأحان الحثية (٢٤) .

لقد فرض الآراميون انفسهم ، على الرغم من انقسامهم ، عاملا رئيسيا في الصراع السياسي - العسكري الطويل الذي امتد قرونا ( القرن الثاني عشر - القرن الثامن ) ، وقامت فيه دمشق بزعامة ملوكها ، وبخاصة برهدد وحزائيل ، وارفاد بزعامة برجوش ومتع إل ، بدور بارز كان من الممكن ان يؤدي الى قيام اتحاد آرامي حقيقي يضم آرام العليا وآرام السفلى . اي آرام الشمالية وآرام الجنوبية . ولكن الجهود الآرامية والسياسية آلت اخيرا الى الاخفاق وأحبطت كل محاولات الاتحاد امام هجمات الآشوريين المنهكة .

ولكن رغم هذا الاخفاق سياسيا فان الآراميين برهنوا ، مع ذلك ، على قدراتهم المبدعة وعلى فعالية امكاناتهم على الصعيدين الاقتصادي واللغوي .

### ٣ - الآراميون عامل اقتصادي في المنطقة :

كان لظهور الآراميين على مسرح المشرق العربي القديم نتائج هامة على الوضع الاقتصادي للمنطقة التي كانت تمر آنذاك في مرحلة تغيير جذري . فبعد فترة من الاضطراب والعنف ساد المنطقة جو من الاستقرار ساعد على استرداد الفعاليات الاقتصادية نشاطها السابق ، في وقت تميز بتطور تقني هام في تاريخ الحضارة العام وهو التوسع في استخدام الحديد في الصناعة وتقلص صناعة البرونز ، مما كان مؤشرا على دخول الشرق الأدنى في عصر الحديد ( اواخر الالف الثاني ق.م ) . ورافق ذلك تطور في المواصلات كانت له انعكاساته على الصعيد العسكري ايضا ، وتميز كذلك باستخدام الخيل على نطاق واسع وما يتصل بذلك من تطور صنع العربات وكل ما يتعلق بها من التقنيات بالإضافة الى ازدياد أهمية حرفة سائس الخيل والفرسان (٢٥) . وفي مثل هذه الظروف التاريخية التي تعتبر من اهم مراحل تطور تاريخ المنطقة كان الآراميون الوافدون من البوادي يجدون الابواب مفتوحة امامهم على مصارعها للعمل في الحرف والمهن وفي التجارة والجيش .

ومن المعروف ان لسورية تاريخا عريقا في التجارة والاقتصاد يرقى الى ما قبل العصر الآرامي بقرون . ولمنطقة حلب مكانة خاصة في هذا المضمار بكونها الجسر الطبيعي

للاتصال ما بين وادي الفرات والحوض الشرقي للمتوسط . فكل الطرق في سورية الشمالية تؤدي عبر طرق الامانوس الى آسية الصغرى او عبر حوض العمق الى موانئ البحر المتوسط ، الى اوجاريت وارواد وجبيل وغيرها ، ومنها موانئ كانت لها فعالية تجارية مرموقة منذ عصر ابلا في الالف الثالث ومنذ تاسيس اقدم العلاقات التجارية عن طريق البحر ما بين مصر والساحل الكنعاني - الفينيقي (٢٦) . وقد تطورت هذه الفعالية واحتفظت بعض الموانئ بأهميتها ، او ظهرت موانئ اخرى خلال الالف الاول ، مثل عرقة وسيميرا والمينا الواقعة مقابل اوجاريت .

وقد استطاع الآراميون الذين اضحوا سادة سورية الشمالية في مطلع الالف الاول ق.م . ان يفرضوا لانفسهم مركزا متفوقا على الصعيد الاقتصادي والتجاري ، خاصة في منطقة المشرق القديم ، بعد ان وطدوا اقدمهم عند مفارق الطرق وعند المحطات الاساسية لطرق المواصلات التقليدية وبخاصة ما بين الاناضول ومناطق آسية الصغرى من جهة وسورية والرافدين من جهة اخرى . وقد وضع أهمية هذا الدور كل من **ج ماكوين و ج ملارت** في دراستهما القيمة (٢٧) . وقد ابرزا فيها مقدار ما تحقق في سورية من ثراء وغنى وعمران مما جعلها مطمعا للغزاة والطامعين . وقد كانت مملكة اشور على راس هذه القوى المجاورة الطامعة بثروات سورية ، ولم تكن لترضى ان تفيد منها ببناء علاقات تجارية منظمة ، فقد بنت سياستها الاستراتيجية تجاه سورية المنقسمة والفنية على اساس من التوسع والتفوق بالاستناد الى الاداة العسكرية الساحقة التي كان يتمتع بها الجيش الاشوري . وقد اوضحت هذه السياسة التوسعية الاشورية تجاه كل بلاد امورو وآرام الواقعة غربي الفرات وحتى البحر المتوسط سياسة تقليدية ما بين القرنين التاسع والسادس ، اي منذ اشور ناصر پال وحتى سقوط اشور على ايدي التحالف الميدي - الكلداني ، وكان هدفها الاساسي فرض السيطرة المباشرة على اقتصاد البلاد واعتباره مصدرا اساسيا لحاجات الحياة اليومية في المدن الاشورية عامة وفي البلاط الملكي وقصور الطبقة الحاكمة خاصة . وقد ورث هذه السياسة فيما بعد ملوك بابل الكلدانيون ، ثم الملوك الفرس الاخمينيون . ومن الجدير بالذكر ان لاشور تقاليد عريقة في بناء سياستها الاقتصادية على اساس الاستغلال في مناطق خارجية وبعيدة ، كما تشهد بذلك دراسة فعالية المستعمرات الاشورية في كابا دوكية منذ اوائل الالف الثاني ق.م ، وقد كشف عن بنيات هذه السياسة بوضوح الاستاذ **ب. جارييلي** في دراسته الرائعة عن الاشوريين في كابا دوكية (٢٨) .

وبعد ان تحقق لاشور السيطرة على معابر الفرات الرئيسية اثر نزاع طويل منذ عصر تكلات فلاصر الاول ( اواخر القرن الثاني عشر ) الى عصر اشور ناصر پال الثاني

( اوائل القرن التاسع ) ، وبعد ان اوضحت الضفة اليمنى للنهر بيد اشور بعد انهيار مملكة بيت عديني الارامية ، دار الصراع حول مناطق سورية الشمالية والماعبر والطرق المؤدية الى شواطئ المتوسط . في تلك المرحلة كانت مصر بعيدة تماما عن الساحة لما كان يكتنفها من ضعف وانقسامات داخلية وصراع على السلطة المركزية بين الاسرات الحاكمة في وادي النيل ( الاسرات ٢١ - ٢٤ ) . اما آسية الصغرى فلم تظهر فيها قوة كبرى هامة منذ سقوط الامبراطورية الحثية في القرن الثاني عشر حتى ظهور الفريجيين في غرب آسية الصغرى في القرن الثامن ق.م . ولذلك فقد بقيت الساحة خالية تقريبا امام التحركات العسكرية الاشورية التي اوضحت تحركات موسمية للغزو وجمع الغنائم والمحاصيل وفرض الغرامات كلما كان الظرف مناسباً وكلما ازداد الانقسام في العالم الآرامي . ولم تتدخل لمنافسة اشور سوى دولة واحدة هي مملكة اورارتو التي برزت في مرحلة محدودة خلال النصف الاول من القرن الثامن ، عندما توسعت هذه الدولة من مركزها الاساسي حول بحيرة وان ( ارمينية ) نحو الغرب وسفوح طوروس الجنوبية باتجاه الممالك الارامية الشمالية وبخاصة مملكة بيت اجوشي في ارفاد . ومن النافل ان نؤكد ان الدافع الاساسي لهذا التدخل هو سعي كل من اورارتو واشور ، وهما كلتاهما دولتان داخليتان ، الى الوصول الى البحر المتوسط .

ومن اهم الدراسات الحديثة حول السياسة الاقتصادية الاشورية دراسة الباحثة السوفياتية ن.ب. يانكوفسكا (٢٩) التي وجهت الانتباه بصفة خاصة الى تنوع العلاقات ما بين آشور والاقطار الاخرى ، ومنها بلاد آرام ، بصورة تتناسب مع اختلاف شروط الانتاج في كل منها وحاجة الدولة الاشورية لهذا الانتاج . ويوضح لنا اختلاف المصطلحات المستخدمة في اختلاف نوعية هذه العلاقات وقيمها القانونية . فهناك الضريبة التي تكون بالواقع غرامة مفروضة ( بالاكادية : بيلتو ) ، والتقدمات او الهبات التي يتوجب على المغلوبين تقديمها للملك ورجاله من القادة والحكام ( وهي بالاكادية **مانداتو** ، من الفعل نادانو : اعطى . وفي العربية الندى الكرم والعطاء ) . وهناك الغنائم التي تعقب الحروب مباشرة . تلاحظ يانكوفسكا ان التشابه واضح في المواد التي يرد ذكرها سواء في قوائم الغرامات ام في قوائم الغنائم التي يحزها الجيش الاشوري في اعقاب تحركاته . فهما تعددت الصيغ القانونية او الرسمية فان ما كان يهم الدولة الاشورية هو الحصول على الانتاج المطلوب من اقتصاد المناطق المفتوحة ، او المغلوبة . ولا تتيح دراسة قوائم الغرامات والغنائم والاسلاب معرفة مصدر المواد التي تم الاستيلاء او الحصول عليها ان كانت من صنع محلي في سورية او مستوردة . اما المعدن المستخدم للدفع او لتسديد القيمة فهو الفضة على الاغلب والقصدير والنحاس . ولم يستخدم الذهب كمادة نقدية الا في زمن متاخر وعلى الاغلب في القرن السابع بعد الاقتراب من مصر وازدياد التعامل معها .

## ٤ - اقتصاد الدول الآرامية ، « ارفاد » نموذجا :

بعد هذه النظرة الشاملة على دور الاقتصاد السوري في العصر الارامي القديم وأهميته في اقتصاد الدولة الاشورية وسياستها التوسعية ، يمكن ان نتعرف على نموذج لبنية هذا الاقتصاد الارامي ومقوماته من خلال العلاقة ما بين دولة ارامية هامة هي مملكة ارباد ( ارفاد ) وبين مملكة اشور . وتستند هذه الدراسة الى ما تقدمه لنا معطيات التنقيبات الاثرية في موقع تل رفاذ ( تل رفعت ) في شمال سورية، بالإضافة الى ما يستخلص من الحوليات الملكية الاشورية التي تعود الى الفترة الواقعة في القرنين التاسع والثامن ق.م .

فقد اظهرت نتائج التنقيبات التي قامت بها البعثة البريطانية بقيادة سيتون وليامس وجود بقايا اثار من أوان نحاسية يرجح ان يكون مصدرها من اورارتو . وقد ربطت سيتون وليامس بين وجود اشياء من هذا النوع في تلك الفترة وبين الظروف الدولية التي اتاحت الفرصة في فترة ما لنمو العلاقات السياسية والاقتصادية بين مملكة اورارتو على عهد ملكها ساردور الثالث وبين مملكة ارفاد على عهد ملكها متع إل خلال القرن الثامن (٢٠) . على ان مثل هذه العلاقة الوثيقة بين الطرفين ما هي الا مرحلة في تاريخ العلاقات التي لم تنقطع منذ اقدم العصور بين اقطار الاناضول وما وراء طوروس وبين دول الجزيرة وسورية الشمالية منذ عصر تل حلف في الالف الخامس ق.م .

وقد عثر في هذه السوية من سويات التنقيب ( خلال موسم ١٩٦٠ ) ، على بقايا قطع من مرآة على قاعدة من الجص . واشياء مصنوعة من الحديد وسكين بقرابها . وكسرة من آنية غرانيتية عليها كتابة آرامية ، واشياء اخرى برونزية واسلحة من البرونز والحديد ولكنها بحالة سيئة . ويعتبر وجود هذه الاثار المعدنية دليلا ماديا على المرحلة الانتقالية التي كان يمر بها التطور التقني في المنطقة من العصر البرونزي الاخير الى عصر الحديد .

أما الفخار الذي وجد في هذه السوية فلا يزيد على كسرات صغيرة جدا من النوع الذي عثر عليه في موقع المينا ( السوية ٨ ) ومجدو ( السوية ٥-٤ ) وفي حماه . بالإضافة الى ذلك عثر على لقي واشياء وكسرات فخارية قبرصية واغريقية تعود الى القرنين الثامن والسابع ق.م ، وجد اكثرها في غرفة من السوية الثانية (ب)، بالإضافة الى بعض الحلي وادوات الزينة . وتدل هذه المؤشرات جميعا على وجود علاقات تجارية واسعة مع مناطق داخلية من آسية الصغرى ومع مناطق واسعة من الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، مما يؤكد على الاهمية التجارية والاقتصادية لموقع ارفاد في شمال سورية في الفترة التي ندرسها (٣١) .

**أما الوثائق التاريخية الاشورية** فانها تقدم لنا معلومات اغنى واكثر اهمية عن القدرة الاقتصادية لمملكة ارفاد الارامية خلال مراحل التوسع الاشوري نحو امورو ، اي غربي الفرات ، وهو الاسم الذي كان يطلق على معظم بلاد الشام . وانا سنحاول ان نقدم صورة عن **القدرة الاقتصادية** ، لهذه الدولة الارامية الهامة ولبعض الدول المجاورة المعاصرة لها ، من خلال الحوليات الاشورية ، ونعتمد الى حد كبير على الدراسة القيمة التي قامت بها الباحثة ن.ب. يانكوفسكا ، والتي سبقت الاشارة اليها .

تشير حوليات الملك الاشوري **اشور ناصر بال الثاني** ( ٨٦٣ - ٨٥٩ ) الى الانتصارات التي حققها الملك وما ترتب عليها من نتائج . فقد ارغمت مملكة بيت اجوشي على دفع مبالغ من الذهب والفضة والقصدير والنحاس ، وعلى تقديم اعداد من الماشية وبخاصة من الاغنام والجلود ، ومن الملابس الممتازة المصنوعة من الكتان الملون والمصبوغ والملمع ، ومن الاقمشة (٢٢) . وقد ذكر في وثائق اخرى ان كركميش وبيت عديني قدمت للملك اشياء ثمينة مصنوعة من الذهب والفضة .

اما في زمن **شلمنصر الثالث** ( ٨٥٨ - ٨٢٤ ) فقد كان على بيت اجوشي بعد هزيمتها مرة اخرى امام اشوران تدفع غرامة مقدارها ١٠٠ مينا من الذهب ( = ٥ كغ تقريبا ) و ٦ وزنات من الفضة ( = ١٨٠ كغ ) . وبلاضافة الى ذلك موادا عينية اخرى من الاغنام والجلود والملابس والاقمشة مما اشتهرت به مناطق سورية الشمالية ، بلاضافة الى ذكر كميات من الخمر . ويتباهى العاهل الاشوري بانه تلقى من آرامي ملك بيت اجوشي سريرا نفيسا مرصعا بالذهب والفضة (٢٣) .

ان أية موازنة تجري بين المبالغ التي كان على ارفاد ان تدفعها للفتح الاشوري وبين ما كان يفرض على جيرانها ، تظهر لنا ان ارفاد لم تكن تعتبر في المرتبة الاولى من حيث الثروة المعدنية . وفي الدراسات المتتابعة التي قام بها ب. مايسنر حول مصادر الفضة عند الاشوريين منذ مطلع هذا القرن ( عام ١٩١٢ ) (٢٤) ، وتابعها بعده آخرون مثل جاريللي (١٩٥٩) ولارجمان ( ١٩٦٣ ) وغيرهما (٢٥) ، ما يؤكد على اهمية مناطق الاناضول كمصدر لاهم المعادن التي كانت يحتاج اليها الاقتصاد الاشوري . وكانت حطينا في وادي نهر عفرين اكثر قربا من مناجم التعدين في الاناضول ويبدو انها كانت اكبر ثروة من ارفاد ، كما يستدل من مقادير الفرامات الباهظة التي كانت تفرض عليها حسب الوثائق الاشورية . ولكن ينبغي ان نشير الى ان الفاتحين الاشوريين استطاعوا ان يستولوا على اكبر ما تم تحصيله من مقادير من الذهب من مدينة صور اعظم موانئ المتوسط في عصرها . واضطرت دمشق عاصمة ارام ان تدفع كميات هامة ولكن اقل مما فرض على صور . اما الدول التي كانت تملك ثروات من الفضة فكانت دمشق



وكرميش تأتي في مقدمتها ، وتليها مصيصير في اورارتو وطابال في بلاد الاناضول نفسها . وهاتان المنطقتان الاخيرتان من اغنى المناطق بالمعادن الثمينة ، الذهب والفضة ، في ذلك العصر ، وهذا مما جعلهما هدفا دائما للحملات الاشورية وللتدخل الموسمي للجيش الاشوري .

كانت الفضة تأتي في المرتبة الاولى بين المعادن المرغوبة في التبادل التجاري قبل ان تتخلى عن دورها الممتاز للذهب (٢٦) خلال الالف الاول ق.م . وبعد هذين المعدنين الثمينين يأتي القصدير في المرتبة الثالثة من حيث الاهمية ، وكان يطلب الى جانب النحاس لتصنيع البرونز . وقد وجدت سبائك نحاسية وقصدير بكميات هامة في المراكز والمدن والموانئ الرئيسية في كل الشرق الادنى القديم ، وبخاصة في موانئ البحر المتوسط وفي كرميش وارفاد ، كما يتضح من دراسة الحوليات التاريخية من عصري شلمنصر الثالث ( القرن التاسع ) وتكلات بلاصر الثالث ( القرن الثامن ) (٢٧) .

وقد تمكن الاشوريون خلال حملاتهم على سورية من الحصول على النحاس والقصدير من المناطق التالية : دمشق التي دفعت غرامة للملك ادد نيراري الثالث (٢٨) ( حوالي ٨٠٥ ق.م ) مقدارها (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف وزنة ( = ٩٠ طنا ) من النحاس . بينما تلقى اسلافه كميات هامة من القصدير والنحاس من الموانئ الساحلية الفينيقية ومن كرميش وبيت عدينى على الفرات ومن حطينا ( عنقي ) وهي منطقة العمق (٢٩) .

وقد اضحى الحديد في المرحلة التي ندرسها المعدن الاستراتيجي الاكثر اهمية في ذلك العصر ، ومع ذلك كان ذكره في المصادر الاشورية اقل من ذكر المعادن الاخرى التي اشرنا اليها . وكان يستحصل عليه ويستورد من مناطق مختلفة من اسية الصغرى ويصنع على الاغلب في الموانئ الكنعانية - الفينيقية في سورية ، ثم يجري تصديره الى بلاد الرافدين . وتأتي دمشق في المرتبة الاولى من حيث الكميات التي قدمتها لادد نيراري الثالث تليها حطينا وكرميش . وقد ذكر ان دمشق قدمت ( ٥٠٠٠ ) خمسة الاف وزنة ( = ١٥٠ طنا ) من الحديد ، ولكن مدن الساحل قدمت كميات اكبر لجيش تكلات بلاصر الثالث (٤٠) . فاستنادا الى هذه المعلومات التي حملتها لنا الوثائق الرسمية من الديوان الاشوري يمكن ان نستنتج ان ارام دمشق كانت اكثر الدول الارامية غنى بالنحاس والحديد لان الطريق التجارية الرئيسية من الشمال الى الجنوب كانت تمر بدمشق حامله بضائع وموارد اسية الصغرى عن طريق عملاء تجاريين من حطينا وبيت اجوشي كانوا يتعاملون مع ارام دمشق اكبر دول العالم الارامي واكثرها اهمية سياسيا واقتصاديا .

**وكان النسيج** الذي تنتجه المدن السورية مرغوبا في اشور وغيرها ، وكانت له شهرة قديمة ومعروفة منذ قرون بعيدة . وقد فرض على ارفاد ان تقدم للجيش الاشوري كميات كبيرة من الملابس (٤١) . وفضل انواع القماش الارجماني ( بالاكادية ارجمانو ) والقماش المصبوغ بالازرق والبنفسجي المعروف باسم ( تاكتو ) وهي من منتجات المدن الساحلية الفينيقية .

ولا ننسى قيمة الاخشاب وتجارتها في اقتصاد سورية القديم لما لها من اهمية في البناء ، بناء المعابد والقصور وعمارة المراكب والسفن والاثاث والادوات . وكانت الاخشاب تستورد من سورية الى اشور وبابل بصورة منظمة واما مصادرها فهي جبال الامانوس ولبنان . وكانت تعد البعثات للحصول على الاخشاب تجاريا او بطريق الحرب كفنائم او غرامات تدفع سنويا .

وماتزال نتائج التنقيبات الاثرية في ارفاد تزونا بمعلومات اضافية عن اهمية الموقع في العصر الارامي القديم وبعده ، كما اكدت ذلك الحفريات التي اجرتها بعثة جامعة لندن عام ١٩٧٧ . وهناك قطعة من رقيم مسماري وجد في حصن شلمناصر في موقع نمرود في شمال العراق يفيدنا عن كمية من الاقواس (٧٨٤ قوسا ) كان يتوجب ارسالها من ارفاد الى مخازن الاسلحة الاشورية . ولا نعرف بالضبط تاريخ هذه الوثيقة ، ولكن لابد ان ترجع الى مرحلة اسبق من ضم ارفاد الى المملكة الاشورية في ٧٤٠ ق.م . وقد نالت هذه الوثيقة حظا كبيرا من الاهتمام ودرسها كل من ماللوان ، واواتس (٤٢) . وقد بقيت ارفاد تحتفظ بدورها بعد ان اضحت تدار من قبل الادارة الاشورية . ففي حويلات الملك اسر حدون ( ٦٨٠ - ٦٦٩ ) نجد ما يفيد بأن اشور استجلبت من ارفاد الخيول والبغال .

## ٥ - خاتمة :

قبل نهاية هذا البحث يمكن ان نستنتج ان ارباد ( ارفاد ) كانت تمثل في سورية الشمالية اهمية استراتيجية فوق اهميتها الاقتصادية . كانت الواجهة التي تلقت الضربات الاشورية بعد انتقال اشور الى ضفة الفرات اليمنى . لم يؤد سقوط ارفاد الى سقوط الدويلات السورية تباعا امام الزحف الاشوري ؟ ان ملاحظة الشواهد السابقة التي عرضناها في حديثنا عن الاقتصاد الارامي واهميته بالنسبة لاقتصاد اشور تؤكد لنا مرة أخرى ان السياسة الاستراتيجية التي رسم خطوطها ونفذها الملك تكلات بلاصر الثالث لتحويل الدويلات السورية الارامية والفينيقية الى ولايات اشورية تدار من قبل الحكومة المركزية او باشراف ممثليها المعينين ، لم يكن هدفها حماية امن

أشور وحسب ، ولكن بالدرجة الاولى وضع اليد مباشرة على طرق المواصلات الدولية التي تعبر اراضي سورية الشمالية ، ووضع المدن الرئيسية وهي مراكز التجارة والاقتصاد في سورية في خدمة الدولة الامبراطورية الاشورية . وهذا مايفسر لنا كيف استخدمت الثروات الضخمة التي رفدت بها التجارة الارامية ، عبر الطرق مابين الاناضول والمتوسط ومصر والجزيرة العربية، خزائن العواصم الاشورية . وانه على الاخص في هذا العصر بالذات ،اي في النصف الثاني من القرن الثامن وفي خلال القرن السابع بلغت أشور اقصى درجات اتساعها واعلى درجات الثراء وشادت ارفع البنيان وعمرت الحصون والقصور في كلح ونيوى وغيرهما ..

لقد اتجهت حركة التوسع الاشوري في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ المنطقة باتجاهين : **الاول** نحو الغرب الى بوابات التجارة البحرية على البحر المتوسط اي نحو الموانئ الفنية العامرة : ارواد وعرقه وسيميرا وجبيل وصور ، اما الثاني فكان نحو **الجنوب**، اي الى بابل وبلاد البحر ( سومر القديمة )لانتزاع التجارة من ايدي البابليين الكلدانيين والاراميين في تلك المنطقة من اجل الاشراف على التجارة مع مناطق الخليج: ديلمون وماجان ( اي بلاد البحرين وعمان ) .

وكان هؤلاء الاخلامو والاراميون القدماء ، الذين شكلوا في السابق مصدر ازعاج لاية سلطة مركزية في بلاد الرافدين ،هم العامل الاقتصادي الاهم في المنطقة ، لما كانوا يقومون بهمن دور الوساطة التجارية بين البلاد الداخلية في حوض الفرات والجزيرة وحتى الى مصر من جهة ، وبين الهند البعيدة كانوا يستوردون الحجارة الكريمة والتبر والذهب والخشب النفيس والعاج المرغوب من اجل الزينة وصنع اثاث القصور . وهكذا اضحت تلك الاقوام ، مصدر الاضطراب في اواخر الالف الثاني ق . م ، هي عامل الازدهار والاستقرار في الالف الاول ، وهي التي ، بعد ان فقدت استقلال دولها، كان عليها ان تستمر في تادية دورها الحضاري قرونا طويلة في ميداني الاقتصاد واللغة حتى جعل الاراميون من اللغة الارامية لغة رسمية الى جانب لغات الفاتحين من الاشوريين والكلدانيين والفرس . وهذا الدور الحضاري يجعل للاراميين في الالف الاول ق . م دورا في الدرجة الاولى من الاهمية ، مهد السبيل بما تركه من اثر ثقافي ارامي - سرياني لتجدد الحضارة العربية وانبعاث رسالتها .

- (١) T. Bossert, Anatolien ( 1942 ) P. 67; من اجل تفصيلات احداث هذه المرحلة :  
Seton - lloyd, Early Anatolia ( 1956 ) P. 159;  
J. Howinkencate, Kleinasien - Zwischen Hethitern u. Persern, Fiseher  
Weltgeschichte 4 ( 1967 ) , P . 112.
- (٢) ورد اسم المكان قو من ديار بكر شرقي جزيرة العرب . وقو جبل عند الهمداني في « صفة جزيرة  
العرب » ، وذكر على انه من منازل اباد . و « ذات القوة » موضع اليمن . فربما حملت الهجرات  
العربية هذا الاسم الى أقصى الشمال .
- (٣) A. Goetze, Kizzuwatna and The Problem of Hittite Geography : انظر :  
New - Haven, Yale Univ . Press ( 1919 ) P. 4-5, R. Gurney, The Hittites,  
( Penguin Books ) , ( 1967 ) , P. 40 .
- (٤) انظر لسان العرب لابن منظور ، مادة « شمل » .
- (٥) A. Alt, Das Grossreich Davids, ( Kleine Schriften II ), (1955) P66-75,  
A. Malamat, The Kingdom of David and Solomo in its Contact With  
Egypt and Aram Nahraim , ( Biblical Archeologist B.A , XXI ), 4 ,  
( 1958 ) , P.96 .
- P. Naster , L' asie Mineure et L Assyrie au VIII et VII ,  
siesèles av .J.C. d' après Les Annales des reis assyriens , Biblio-  
theque du Museon 8 ) , Louvain ( 1938 ) P . 2 sq .
- L . Delaporte , Les Hittites ( Bibliotheque des Syntheses Histori-  
ques ; coll , ( L' Evolution de L' Humanité ) Paris ( 1936 ) carte III.
- D. D. Luckenbill, Ancient Records Of Assyria and Babylonia , Chi-  
cago , ( 1926 - 1927 ), I = ARAB.
- العهد القديم ، ٢ ، ٧ : ٦ سفر العدد ، ٢ ، ١ : ١٧  
انظر : (٧)
- G. Buccellati, The Amorites of the Ur III Period , ( Instuto  
Orientale di Napoli , 1966 ) P . 133 , 236 - 237 .
- انظر : (٨)
- N . Schnelder , Aram und Aramaer in des UrIII Zeit , Biblica , 30  
( 1949 ) P . 109 - 111 ; A. Dupont - Sommer , Sur tes débuts de L,  
Histoire araméenne « dans Supplement à Vetus Testamentum , Vol.  
I , Leiden , ( 1953 ) P . 4 - 9 .
- J . P . Kupper , Les Nomades en Mesopotamie au temps des rois de  
Mari , Paris ( 1957 ) , Ch . III .
- M . Liverani , Storia di ugarit , Roma ( 1962 ) P . 153 .
- انظر نصب زكر ملك حماة ولعش في : (٩)
- H. Donner W . Rollig , Kanaanäicsche u. Aramaicshe Inschriften ,  
= ( K A I ) , No 202 , S . 204.

- (١٠) جدل اختلاط الاحلامو الاراميين بالاموريين في بمحاض / حلب راجع :  
G . Buccellati , The Amorites , P . 242 - 243 .
- (١١) انظر مادة « خلم » في ابن منظور : لسان العرب :
- (١٢) انظر حلم - חלם في W . G esenius , Handwörterbuch
- (١٣) انظر مادة حلم في ابن منظور : لسان العرب .
- (١٤) انظر بهذا الصدد :  
J . R . Kupper ; Les Nomades en Mesopotamie au temps des rois de Mari , Paris ( 1957 ) . P . 112 - 113 ; P . Garelli , le Prode -Orient Asiatique 2 bis , Paris ( 1974 ) , P . 217 .
- (١٥) انظر مادة كئمان في :  
Guy et. M . F . Rachet, Dictionnaire de La civilisation Egyptienne , ( Larousse ( 1968 ) , ( canaan , P . 60 ) ;  
J . R . Kupper , op . Cit. P . 108.
- (١٦) انظر :  
(١٧) انظر برنتمان :  
J . A . Brinkman , A political History of Post - Kassite Babylonia ( 1158 - 722 ) , Rome ( 1968 ) n . 1799 .
- (١٨) انظر :  
J . R . Kupper , op . cit P , 134 - 135.
- (١٩) انظر :  
E. Dhorme, les Langues et Les ecritures Sémitiques , Paris ( 1930 ) P . 29 ; A, Dupont - sommer , L'Ostracon arameen d'Assur , Syria , XXIV , 1944 - 45 P . 24 - 61 .
- (٢٠) انظر اخيرا :  
A. Lemaire , J . M . Durand , les inscription Arameenes de Sefire et L'Assyrie de Shamshi - Ilu , ( 1984 ) , P . 111.
- (٢١) انظر برنتمان :  
Brinkman, op. cit, P. 335 - 338 :
- (٢٢) Donner , Rolig , = KAI, no 201;  
H. Farzat, Le royaume araméen d'Arpad, Paris , (1972) P.37.
- (٢٣) انظر :  
Donner , Rolig , = KAI no 202;  
A. Dupont - Sommer, Les Arameens P, 45 - 48.
- (٢٤) انظر :  
H. Farzat, op. cit .p.38.
- (٢٥) انظر :  
F. M. Heichelheim , An Ancient economic History , vol . I Leiden (1965) , P.203;  
J.Deshayes, Les Civilisations de l'Orient - Ancient, ( Arthaud -Paris) ( 1969 ) P . 111 - 116 .

- (٢٦) انظر :  
**Polanyi et oppenheim, Trade and Market in the Early Empires**, (1957),  
 p. 12 - 27 , 38 .
- وحول العلاقات التجارية ، انظر :  
**Schachermeyer , Agais und Orient , Wien ( 1967 ) , p. 20 - 26 ;**  
 انظر مقالة جان لوكلان Jean Leclant في :  
**W. A. WARD, The role of the Phoenicians in the interaction of the**  
**Mediterranean civilizations; Beirut , the American Univ. ( 1968 ) ;**  
**A. Parrot, M. Chehab et S. Moscati, Les Phéniciens, Gallimard, Paris**  
**(1975) P. 34 - 35.**
- (٢٧) انظر حول الطرق التجارية مع اسية الصغرى خلال الالف الثاني:  
**J. G. Macquen, Geography and History in Western Asia Minor in the**  
**second Millenium B.C. «Anatolian Studies » 18, (1968 ) P. 169 - 185;**  
**J. Mellart, «Anatolian Trade with Europe and Anatolian Geography and**  
**culture Provinces in the Bronze Age» in An.St. 18 (1968) P. 187-200;**  
**P. Garelli, les Assyriens en Cappadoce, Paris (1963) p. 225. راجع : (٢٨)**  
 انظر دراسة يانكوفسكا (٢٩)  
**N. B. Jankowska, some problems of the economy of the Assyrian**  
**Empire. p. 253 - 275 .**
- في كتاب لعدد من المؤلفين باشراف الاستاذ دياكونوف  
**I. M. Diakonoff ( ed ) , Ancient Mesopotamia , Socio - Economic**  
**History, Moscou , (1969).**  
**H. Farzat, Le royaume arameenn d'Arpad , p. 40, 134. انظر ايضا :**  
**Seton - Williams, Iraq XXIII (1961) , planche XL; I no 14, p. 79.**
- (٣١) انظر مقالة سيتون وليامز في مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية ، عدد ١٧ (١٩٦٧).  
**Seton - williams, « tell Rifat » AAsyr XVII , 1967 , p.67 , 72.**
- (٣٢) انظر :  
**D.D. Luckenbill, Ancient Recorde of Assyria and Babylonia (1926) =**  
**ARAB Vol. 1, N° 477.**
- (٣٣) راجع المصدر السابق :  
**Luckenbill = ARAB , I, n° s 475 - 476 , 600-601.**
- (٣٤) انظروا :  
**B. Meissner , « Woher haben die Assyryer silber bezogen ? »**  
**Orientalische Literaturzeitung = Olz , XV , (1912), 145-149.**
- (٣٥) انظر جارييلي ، التاريخ العام للعمل :  
**P. Garelli, Histoire generale du travail , I, Paris (1959) p. 49 - 104;**  
 ومادة تعدين Métallurgie ومقاييس Métrologie في :  
**Dictionnaire archéologique des Techniques , 2 vols . Paris 1963 ; Langement, II p. 660. D.Arnaud**

contribution à l' étude de la metrologie Syrienne au II ème millé-  
naire , in Revue de L'Assyriologie = RAss 61 ( 1067 ).

**R. J. Forbes** , Gold in the ausient Near - East, dans Ex. Oriente Lux (٣٦)  
N° 6, ( 1936 ) p. 237 - 250 ; **Forbes** , Metallurgy in Antiquity, Leiden  
n°6, ( 1950 ).

**Luckenbill**, ARAB ,I, ns . 603, 772, 801, (٣٧) انظر :

ARAB, I, no 740. (٣٨) انظر المصدر السابق :

(٣٩) انظر المصدر السابق ، الأرقام :  
nos 454 , 466, 475 , 476, 479; 518; nos 593, 601, 585, 655 , 769.

وهذه الوثائق تعود بالترتيب الى حكم كل من : اشور ناصربال الثاني ، شلمنصر الثالث، وتكلات  
بلاصر الثالث .

ARAB, I, 740, (٤٠) المصدر السابق ،  
585; 476, 477, 772, 801 , 601. ايضا :

476, 479, 601, 655, 740. (٤١) المصدر السابق ، الأرقام :  
**Jankowska**, idem , p. 285. انظر ايضا :

**M. E. L. Mallowan**, Nimrud and its remains I , II , London (1969 ) , (٤٢)  
I,p. 386, n° 21 . II, p. 406 ; **D. Oates**, Fortshalmanassar , an Interim  
Report, Irap, XXI, (1959) P. 98 - 129.